النهج المستقيم وجد في صدره سعةً وفي احواله استقامة وعن الاشرار سلامةً وعند الاختيار حظوةً وفي معاشهِ سدادًا مقدارَ ما يفعلهُ وينويهِ منهُ . واذا تيقَّن ذلك فينبغي ان يُقدم على سياسة الاحوال بقلب قويّ ونيَّة صادقة وصدر واسع وثقة بان ما يأتيهِ من ذلك وان قلَّ يجدي عليهِ نفعًا بجلّ (الباقي للآتي)

ادیرة مصر الاولى للقديس باخوميوس

للباحث المدقّق الاب ميخائيل جوليان اليسوعي (تتمَّةٌ لما سبق)

٣ دير تابنَّة

في وصفنا السابق لدير فاو بيَّنَّا ما صار اليهِ ذلك المقام من الشهرة بكثرة رهبانهِ وعجيب ترتيبهِ الَّا انَّ هذا الدير كان سبقهُ دير آخر يعدُّهُ المؤرخون كمهد المعيشة الرهبانيَّة على طريقة القديس باخوميوس ألا وهو دير تابنَّسة المدعو بالقبطيَّة تابنيسي ومعناها « نخيل الإلهة ايسيس » وهاك بالاختصار خبر هذا الدير كما ورد في ترجمتيهِ القديمتين

بينما كان باخوميوس متنسكًا تحت نظارة الشيخ الجليل القديس پاليمون اذ ألهمهُ الله في ذات يوم ان يخرج الى البرّيَّة كمألوف عادتهِ فهام على وجههِ سائرًا بين الادغال والاشواك حتى قطع عشرة اميال (١ فوصل الى تابنَّة حيث جثا راكعًا وصلَّى الى الله ملتمسًا منهُ ان يكشف لهُ ارادتهُ تعالى عزَّ وجلَّ . وبقي مستحرًا بالصلاة ساعات طوالًا حتى اتاهُ صوت من السماء يكرّر على مسامعهِ هذه الاقوال: « جاهد الجهاد الطيّب واسكن في هذا المكان وابنِ لك قلايةً فيأتيك جمٌ غفير من النسَّاك يتتلمذون لك ويسلكون تحت قيادتك طريق الكمال »

فلمَّا علم پاليمون برؤيا تلميذهِ هلَّت الدموع من عينيهِ مليًّا ثمَّ صرخ: « بُنيَّ ألملك تتركني في شيخوختي بعد سبع سنوات قضيتها تحت طاعتي . ولكن فلتتمّ مشيئة الرب على الدوام . فاذهب الى حيث يدعوك الله ولا اطلب منك سوى نعمة واحدة وهي ان

١) وفي الترجمة الافرنسيَّة التي نشرها المسيو أميلينو « سار ميلًا » وهو غلط لا يوافق النصّ القبطي

تزورني مرّة في السنة وانا كذلك افتقدك مرّة كل عام الى ان يدعوني الله اليه . فهلمّ بنا الان نذهب الى تابنّة ونبتني لك فيها منزلًا »

فتحفّز باخوميوس للعمل وشمّر عن ساعد الجدّ وباشر بناء ديركان لعدد غفير من الرهبان . وكان لهُ اخ يُدعى يوحنّا يمينهُ في شغله الّا انهُ كان يتعرّض لهُ مرارًا في سعة البناء وعظمته ولا يرى داعيًا لمسكن رحب كهذا . غير ان رجل الله لم يُصغِ الى مقاله وانجز عملهُ كما عزم عليه سابقًا . ونعمَ ما فعل لانّ طالبي الكمال تقاطروا اليه من كلّ فجّ وأوب حتى ضاق بهم المكان مع رحبه وذلك ما حملهُ على تشييد دير فاو السابق ذكرهُ . ولعلّ ضفّة النيل لم تسح للقديس بتوسيع نطاق هذا الدير كما كان يرغب او تكون المياه طغت على حدودهِ فانهار منها قسمٌ وجرفها السيل

ولشدّ ما كنّا نروم ان نستكشف عن آثار هذا الدير الذي طلبهُ قبلنا في القرن الثامن عشر السائح الشهير والمرسل اليسوعي النبور الاب سيكار (Sicard) لكنهُ لم يجد سوى اخربة دير فاو المنوّه بهِ فظنّهُ دير تابنّة (١ . ولئلا يطيش سهمنا اخذنا نطالع تراجم القديس باخوميوس لنستفيد منها الاعلامات التي من شأنها ان تعرّفنا موقع دير تابنّة . فمن الاوصاف السابقة علمنا انّ هذا الدير كان على ضفّة النيل الشرقيّة كتمام بالسون في ثنيت على مسافة عشرة اميال منهُ جنوبًا (٢ اعني بصعود النهر الذي كان القدماء يتوهّمون جريهُ في كل سيله من الجنوب الى الشمال . ونعرف ايضًا انهُ كان جنوبي دير فاو (٣ ليس بعيدًا منهُ لان في تابنة كان رهبان فاو يخبزون خبزهم (٤ وكان الانبا تاودوروس رئيس تابنة بعد نهاية شغل الدير يسير كلّ يوم الى فاو ليواجه القديس باخوميوس ويسمع ارشاداتهِ فيعود ويكرّرها على رهبان فاو (٥ . فكل هذا يدلّ على انّ تابنة كانت قريبة من دير فاو

فسرنا من قصر الصيّاد مستندين الى هذه التعريفات ومشينا ساعةً حتى بلغنا مركز هذه الايالة وهي بلدة دكنا البعيدة عن قنا ٢١ كيلومترًا ونحن لا نشك انّ دير تابنة في جوار دكنا . فبحثنا عن الامر وتحقّقنا في السؤال لدى كهنة البلدة واعيانها فكان

١) راجع مجموع رسائل المرسلين Lettres édifiantes, anc. édit., III, 41

٢) ترجمة القديس باخوميوس القبطيّة (ص ٢٦) ٣) الصفحة ٧٠ منها

٤) الصفحة ٤٤٦ من الترجمة العربيّة ٥) السيرة القبطيّة (ص ١٠٤)

جوابهم انهم لم يسمعوا شيئاً عن دير تابنة وانما وجدوا غير مرَّةٍ في طرف قريتهم آثاراً مسيحيَّة قديمة كصلبان ورموز دينيَّة اذ كانوا يحاولون حفر الاساس لتشييد ابنية جديدة

فاسرعنا الى المحلّ المذكور فاذا هو مكان مرتفع مشرف على النيل فاستدللنا من علوّ حضيضهِ على قِدَمهِ لأنهُ معلوم انَّ المصريّ كان اذا أراد البناء يكتفي بتسوية الارض وتوطئتها ثم يبني من فوقها دون حفر فينتج من ذلك انَّ ارض البناء ترتفع مع توالي الزمان. وكانت مياه النيل قد صدمت هذه الربوة وجرفت منها قسماً ومدَّت تحتها وطأً من الرمل

واوَّل ما استلفت خاطرنا عند تسريح البصر في هذا المقام قِطعٌ كبيرة من بقايا ابنية قديمة رأيناها على ضفَّة النهر ثمَّ فوق هذه الآثار طبقات متعدِّدة من الاطلال المردومة منها أُسس وحنايا وقني وبيوت خربة ترى بعض جدرانها ماثلةً من علُ فوق القرية الحالية. ثم اقتربنا من النهر الذي نضبت مياههُ في هذه السنة دون السنين الباقية فرأينا في قعرهِ ساند أبوابٍ ضخمة وركناً لعمود مع الاكليل الذي يُجعل فوقهُ وهو على شكل مخروط مُنقش على جوانبهِ اوراق بسيطة. فكنا نودّ ان نحفر في وسط هذه الاخربة ليزيد علمنا بهذه الآثار القديمة لولا ان ذلك يقتضي نفقات بليغة وهدم بعض الابنية الحاليَّة

بيد انَّ هذه المظاهر البنائيَّة ايدت ظنَّنا في انَّ دكنا المذكورة وتابنَّة القديمة بلد واحد وانَّ بقايا دير القديس باخوميوس هي في وسط الاطلال ومن المحتمل انَّ النهر قد طما فوقها وزحف بها في سيلهِ الجراف. وفي الترجمة العربيَّة تدعى تابنَّة باسم دوناسا وهو اشبه باسمها الحالي

وقد زعم البعض استنادًا الى قول (١ سوزومانس المؤرخ انَّ تابنَّة المذكورة جزيرة (ἐν Ταβέννῃσῳ) لكنَّ في هذه الالفاظ تحريفاً والصواب (ἐν Ταβέννῃ νήσῳ)

ولئلا يبقى ادنى ريب في امر تابنَّة وان موقعها في دكنا ليس في غيرها تجشَّمنا السياحة في السهل وعلى ضفَّة النيل جنوبي فار لعلنا نجد محلاً آخر يحتوي على آثار قديمة. واتخذنا دليلًا الخواجا صليب علَم من سمانة وهو يملك على قسم كبير من هذه الاملاك وكان معنا شيخ الغفراء فطفنا كلّ الامكنة المجاورة على مسافة ساعتين وثلاث دون

١) راجع التاريخ الكنسيّ لتيلمون الجزء الثامن (ص ١٧٥ و ٦٧٨)

ان نجد اثرًا قديمًا ايًا كان او خربة تنبئ بوجود بلدٍ هناك في سالف الاعصار لكننا اجتمعنا في القرى التي دخلناها بنصارى الاقباط وسررنا بما شهدنا فيهم من التقى وروح التدين. مثال ذلك انَّ نصارى دكنا مع كونهم عُشر سكَّان البلدة كانوا ابتنوا حديثًا كنيسة كبيرة محكمة البنيان من مالهم الخاصّ فوجدناهم لمَّا تزل عندهم ساعين في نقشها. ورأينا في الزَّب وهي قرية تبعد عن دكنا نحو ساعتين في السهل نرمًا من النصارى متحمسين في الدين ولهم كنيسة جميلة قديمة يزعمون انَّ عهدها يرتقي الى ألفي سنة وهم يعظمونها ايَّ تعظيم

وكنتُ زرت سابقًا مع كاهن الاقباط الكاثوليك في فرشوط قصرَ الصيَّاد وفار وبتنا عند اهلها فأعجبتُ مما عاينتُ عند هؤلاء النصارى البسطاء من اللطف والانس والرغبة العظمى في معرفة حقائق الخلاص. وليس لنصارى فار بيعة يقيمون فيها رتبهم الدينيَّة وهم يذهبون الى دكنا لحضور الذبيحة وعددهم بين ٥٠٠ و ٦٠٠ نفسة

(دير العذارى) مما سُطِّر في ترجمة القديس باخوميوس (١ انَّ اختهُ مريم اتتهُ زائرةً في احدى السنين وهو متنسك في تابنَّة. لكن القديس اذ لم يرضَ بمواجهة النساء ارسل اليها البوَّاب يأمرها ان: « لا يسؤكِ يا أُختيَّتي ألَّا تشاهدي وجهي وكفاكِ ان تعرفي اني حيٌّ سالم. وهيَّا انظري يا أُختيَّة لعلَّ الله يدعوكِ الى الزهد بالعالم والمعيشة النسكيَّة. فان رضيتِ بذلك ارساتُ بعضًا من رهباني يبنون لك ديرًا بعيدًا من هنا ». فاذوفت مريم اختهُ الدموع لدى استماعها هذا الكلام ثمَّ لبَّت الى دعوة اخيها. فبنى لها ديرًا في عبر النهر دُعي دير العذارى توارد اليه الفتيات ليتجرَّدن لخدمة الله وكنَّ يتبعنَ قانون القديس باخوميوس. وكان وليُّ الله جعل لهنَّ مرشدًا احد رهبانه المدعو بطرس وكان شيخًا جليلًا صالحًا. وكان بعض الاخوة يقيمون الرُّتب الدينيَّة في كنيسة الدير ويفلحون اراضيها لكنَّهم كانوا يعودون المساء الى تابنَّة ولم يُسمح لهم ان يأكلوا طعامًا عند الرواهب. امَّا العذارى فكنَّ ينسجن اثواب الرهبان ويخطنَها من الكتان والصوف للذين يرسلهما لهنَّ الوكيل الاكبر (الايكونوموس)

ولكن ترى اين موقع هذا دير العذارى ؟ فبعد البحث والتنقيب وجدنا على ضفة النيل الشماليَّة اسفل من دكنا بنحو خمسة كيلومترات مزرعة لاحقة بقرية «سالمات»

١) الترجمة اليونانية (ع٢٢) القبطية (ص٣٦) والعربية (ص١٣٨)

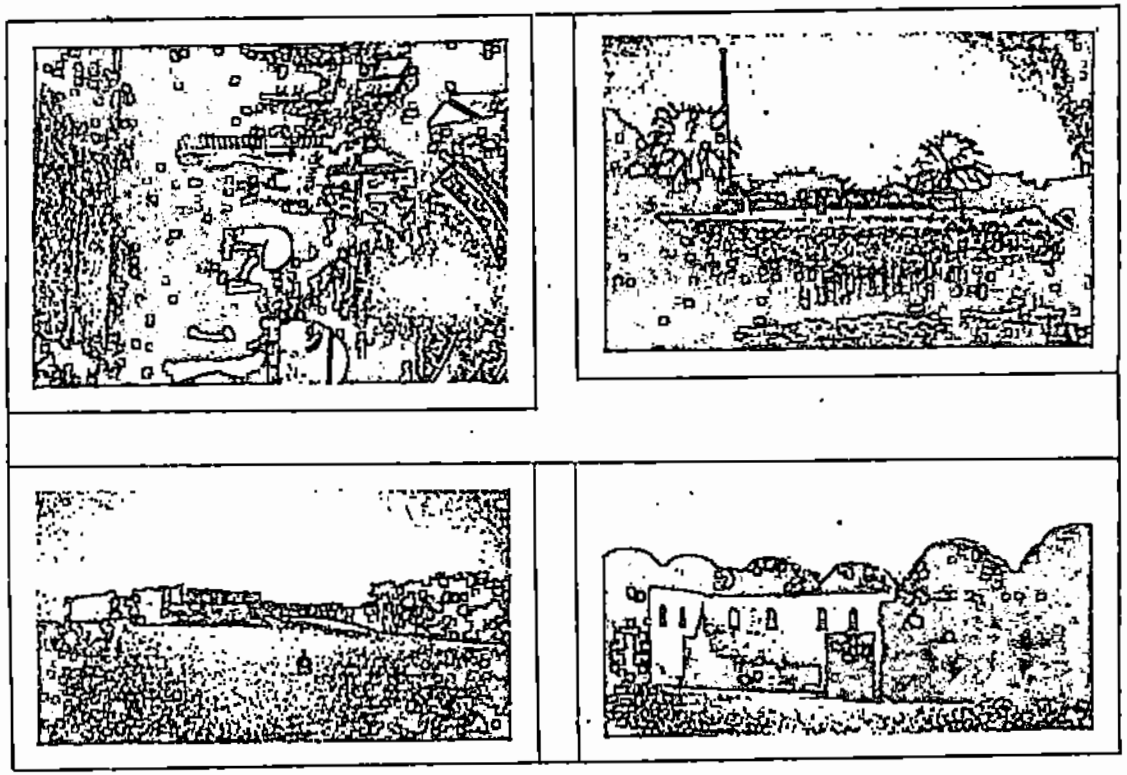

٧ كنيسة دير الابيض قرب اخميم ٨ دير القديس ميناس قرب حاو ٩ دير القديس دميانة قرب ابيدوس ١٠ منظر اخميم من النيل

اسمها « تابينة » فرأينا مقامها انسب ما يكون لمقام دير العذارى. ولعلَّ اسمها دليل على ذلك

٤ ادیرة طبيو وتوشنس واخميم وانة

(دير طبيو) بعد انتشار العيشة النسكيَّة على يد القديس باخوميوس سمع بذكرهِ رجلٌ تقيّ اسمهُ بترونيوس كان قد ابتنى لنفسهِ ديرًا يسمَّى طبيو في احد املاك اسرتهِ الشريفة فارسل الى القديس رسالة هذا مضمونها: « فلتشملنا محبتك بنظرها ولتتفضَّل الى حقارتنا لكي نستظلّ نحن ايضًا في حمى هذه العيشة النسكيَّة التي اوحى بها اليك السيد المسيح (١) »

فاجاب القديس باخوميوس الى سؤل بترونيوس ونظم ديرهُ في سلك اديرتهِ وكان بترونيوس وقف كلّ ارزاقهِ على هذا الدير فتولى امرهُ مدَّة الى ان رأسهُ باخوميوس على دير طسيني بقرب اخميم واقام ابولونيوس مقامهُ في طبيو

واذا بحثنا اليوم عن طبيو وديرها لا نجد لها من اثر. وغاية ما نعرف عن هذا الدير ان موقعهُ كان في معاملة حاو كأديرة بشنيت وفاو وتابنة. امَّا حاو فهي المدينة المدعوَّة باليونانيَّة ديُوسپوليس الصغرى. وفي ترجمة القديس باخوميوس العربيَّة (ص٥٧٣) تدعى طبيو « الطواوي » ولعلَّ اسم طبيو كان يدل في اول الامر على ارض لا على قرية معلومة. ولكن دعنا نذكر ديرًا آخر وهو دير توشنس فانَّ في وصفهِ ما يرشدنا الى معرفة دير طبيو

(دير توشنس) توشنس وتدعى مُنشوسيس كانت منسكًا لجماعة من الرهبان المتفرّدين فاتفقوا مع رئيسهم يوحنا ان يدخلوا تحت قانون القديس باخوميوس فكتبوا اليهِ في الامر فاجاب الى ملتمسهم وهي ثالث جماعة من الرهبان انضوت الى رهبانيَّة القديس باخوميوس

ولنا في ترجمة وليّ الله ما يبيّن لنا مقام توشنس على التقريب. اخبر صاحب الترجمة القبطيَّة (ص١٢٠) انَّ القديس كان يومًا في دير فاو اذ اتاهُ عند مساء النهار ساعٍ يعلمهُ بان احد رهبانهِ في توشنس على وشك النزاع وهو مع ذلك لم يُصبغ بماء العماد. فسار باخوميوس من ساعتهِ مع تلميذه تاودوروس فمشى نصف ليلتهِ حتى وصل الى توشنس. فلمَّا دخل الدير رأى مَلَكين نزلا من السماء ليعيدا الراهب المنازع — ويخبر في الترجمة

(١) الترجمة القبطيَّة (ص٨٦)

عينها ان القديس ارسل يوماً آخر تلميذهُ تاودوروس ليتفقَّد امور الاخوة في تموشنس. فسار للحال ولمَّا وصل الى شنسيت انتظر زورقاً يقلُّهُ الى العبر الموازي ويذهب الى جهة الغرب. وبعد ان قطع النهر مشى ايضاً مدَّة قبل ان يدرك تموشنس (الترجمة العربيَّة ص ٥٨٣) — ونستفيد من محلٍّ آخر (الترجمة القبطيَّة ص ١٢٠) انَّ القديس قضى مرَّة ليلة في تموشنس ولمَّا اصبح صلَّى الصلاة القانونيَّة مع رهبانه وتقرَّب ثمَّ رحل الى طبيو فزار الاخوة ورجع مسرعاً الى فار

فيؤخذ من هذه الافادات ان تموشنس تبعد نحو ٣٠ كيلومترًا من فار او على الاكثر ٣٠ كلم وانَّ اقرب طريق بينهما تمرّ بشنسيت ولا بُدَّ من عبور النهر ومواصلة السير مدَّةً قبل البلوغ الى تموشنس. وكذلك يظهر ممَّا سبق انهُ يمكن العود من تموشنس الى فار على طريق طبيو

فاستنادًا الى ما سبق سرنا من قصر الصيَّاد على مسافة ١٢ كيلومترًا بالتقريب ثمَّ عبرنا النيل فوق قرية «نجع حمادي» فسرنا ثلاثة ارباع الساعة مبتعدين عن النهر حتى ادركنا بهجورا وهي بلدة كبرى فيها كثير من آثار اديرة قديمة. فتقدَّرنا ان تموشنس كانت قريبًا منها الَّا انَّ الاهلين لا يعرفون شيئاً من امر هذا الدير بل يجهلون اسمهُ تماماً. اما الآثار الباقية هناك فاخطرُها شأناً بقايا دير يعرف بدير النصارى وهو اليوم عبارة عن ضيعة صغرى في وسطها كنيسة عتيقة مبنيَّة على اسم القديس بيباب او بيتاب وكان راعيًا على بهجورا ثم صار اسقفًا على مدينة قبطوس واستشهد على عهد ديوقليسيان (١. اما القديس باخوميوس فليس لهُ من ذكرى هنا

ثمَّ خرجت من بهجورا وسرت الى حو او حاو قرية كبرى على ضفَّة النيل الغربيَّة ومسافتها من دكنا سافلًا منها عشرة كيلومترات وموقعها جميل تقرّ لهُ العين وهي تشرف على النيل في احدى عطفاتهِ ولذلك قد جرف النهر من تربتها قسمًا صالحًا. وقد عاينت في قعر النهر آثار جامع حسن طمت عليهِ المياه. ولكني لم اجد احدًا يهديني الى ضالَّتي اعني دير طبيو او الطراوي

وانما زرتُ ديرًا باسم القديس ميناس يبعد نحو نصف الساعة من حاو في السهول المنبسطة هناك. وهذا الدير لهُ شهرة في تلك الانحاء. اما تاريخهُ فمجهول لم يفدني عنهُ

١) عيدهُ واقع عند الاقباط في ١٠ من شهر ابيب. اما ترجمتهُ فكانها تاوفيلوس اسقف قبطوس

شيئاً ثلاثة من كهنة الاقباط استعلمت لديهم عن اخباره. وهناك حجارة قديمة منقوشة كانت داخلة في بناء سابق دوست آثارهُ. وفتشتُ لعلّي اكتشف كتابةً قديمة فلم اظفر بشيء. وفي جنوبي هذا الدير رملٌ جعل فيها المسلمون والنصارى مدافنهم

وعندي ان هذا المكان يوافق موقع دير طبير الذي سبق ذكرهُ وهو على مسافة ست ساعات من تابنّة وليس بعدهُ من هذا الجانب دير آخر للقديس باخوميوس

(دير اخميم) هلمَّ بنا الان نسير شمالي تابنّة ونبحث قرب مدينة اخميم عن دير آخر ابتناهُ القديس باخوميوس وهو دير يسمّى باليونانيّة «طاله» او «طاسه» وبالقبطية طسي (Tsi) وبالعربيّة شدّسينا (١. وهاك ما ورد في التاريخ عنها:

كان اسقف اخميم الدعو آريوس احبَّ ان يقرّب الرهبان من مدينتهِ فاعطاهم ارضاً قريبة من سور البلد وعيَّن القديس باخوميوس ديراً كبيراً عُرف باسم دير شنين او اشمين وعرّبهُ العرب بدير اخميم وهي المدينة التي دعاها اليونان پانوپوليس اي مدينة الإله پان. وقد تكلّف القديس على ابتناء هذا الدير عرق القربة لما وجدهُ في بعض اهل المدينة من المقاومة وكان من جملة هؤلاء قومٌ من المتفلسفين كانوا يجادلون الرهبان ويعرضون عليهم المشاكل والأحاجيّ ليعرقلوهم ويزدروا بهم فاقام القديس في دير اخميم رجالاً متضلّعين بالعلوم الدينيّة ليكسروا من زهوهم (٢

ولما عدد الرهبان بقرب اخميم نموًّا عجيباً حتى اضطرَّ القديس باخوميوس الى بناء دير ثالث دعاهُ دير مينة او تيمينة ورأس عليهِ پترونيوس وكان موقع هذا الدير بجوار دير طسي

وزاد على الاديرة الثلاثة ديراً رابعاً للعذارى المتزهدات اقامهُ قرب تيمينة فازهر بعد قليل حتى اوى اليهِ نحو ٤٠٠ راهبة (٣

---

١) راجع ترجمة القديس باليونانية (ص ٥٣) وطرائف باللغة الصعيدية نشرها المسيو اميلينو في مجلّة البعثة الفرنسويّة في القاهرة (المجزء ٤ ص ٥٢٥) وترجمة العربية (ص ٥١٨)

٢) وقد جاء في ترجمة القديس اليونانية (ع ٥١) بعض هذه المشاكل قال: سأل بعضهم الانبا تاودوروس: من هو الانسان الذي مات ولا يولد. قال: آدم. قال: واي انسان وُلد ولم يَمُت. قال: انوخ. قال: واي حيّ مات ولم تفسد جثتهُ بالتتن. قال: امرأة لوط التي صارت نصب ملح

٣) راجع الترجمة اليونانية (ع ٨٦) وتاريخ پالاديوس (الفصل ٣٦)

فكنّا نودّ لو لقينا شيئاً من آثار هذه الاديرة لكنّنا بعد البحث المدقّق عن دير اخميم وجدنا انّ دون اكتشاف اخربتهِ خرطَ القتاد وذلك لانّ صروف الدهر قد ثقلت وطأتها على هذه المدينة فلم تكد تبقي شيئاً من ابنيتها القديمة كهيكل الاله بان وكنيسة الشهداء اللهمّ الّا ردماً كثيراً شمالي المدينة حيث ترى اليوم مقبرة المسلمين. ولعلّ النيل سادر بسيلهِ ذلك الدير رغطّاهُ بطينهِ الاسود اللزج كما فعل بهيكل روماني كان مبنياً جنوبيّ المدينة لا ترى منهُ اليوم الّا بعض اركانهِ القديمة. ويؤيد قولنا ما دوّنهُ صاحب ترجمة القديس وهو انّ لسقف اخميم لمّا دعا رجل الله الى بناء دير في مدينتهِ التحفهُ بقارب قائلاً: « دونك هذا القارب لانك اليهِ في حاجة ماسّة » وفي هذا القول دليل على ان البناء كان على ضفّة النهر فلا عجب اذا زحف بهِ السيل في كرّ الدهور

وكذلك لم يسعدنا الحظ على وجود ديرَي طمي وطسينه الذين كان موقعهما في أرباض البلد ليس بينهما مسافة كبيرة. ولمّا بحثنا عنهما لم نجد من سمع بذكرهما او عرف اسماءهما الختانة. وانّما يوجد على بُعد ساعة من اخميم جنوباً فوق ربوة تشرف على النيل ديرٌ اسمهُ دير الحديد والعامّة تدعوهُ ايضاً الدير الابيض وبقربهِ كان للرومانيين مركز يُعرف بمركز « طومو ». وهذا الدير شبيه باديرة القديس باخوميوس وان كان احدث منهُ عهداً وعلى رأينا ان رهبانهُ بنوهُ بعدهُ وهو الى اليوم في حالة حسنة اتخذهُ بعض الفلاحين كسكن يأوون اليهِ. ولا كاهن هناك للصلاة

امّا اخميم التي زهت فيها الطريقة الرهبانيّة في القرن الرابع فانها كانت وقتئذٍ مدينة حافلة بالسكّان غنيّة بمرافق العيش. وفي مدافنها القديمة التي تُرى في سفح الجبل شرقاً وُجدت منون بل الوف من جثث النصارى المحنطة. وفيها الى يومنا هذا جمٌ غفير من نصارى الاقباط يبلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ (على ٢٠٠٠٠ نسمة) وكلهم معروفون بنشاطهم ولطف اخلاقهم. وقد لقينا بينهم عادةً لم نرَ لها اثراً في مكان آخر وهي ان التجّار ين يصطنعون توابيت الموتى مجّاناً لكل اهل ملّتهم

(اسنا) بعد ان نشر القديس باخوميوس المعيشة الرهبانيّة في جهات الشمال الهمهُ الله في الرؤيا ان ينشئ لهُ اديرة في الجنوب. فسار الى طيبة ومنها الى اسنا حيث كان الله منّ عليهِ بالتنصُّر فاخذ ينشئ ديراً عند جبالها المعروف عند اليونان باسم يخوم وبالقبطيّة فنوم امّا العرب فيسمونهُ ابنوم وبهنوم

وقد لقي القديس في سبيل مشروعه هذا عوارض شتى من اسقف المدينة وتحزّب عليه اهل البلد غير انّ وليّ الله صبر على البلاء فاتاهُ ربُّهُ بالفرج وتمكّن من اتمام ديره وكان ديرًا متّسع الارجاء محكم البناء اقام عليه كرنيس رجلًا فاضلًا يُدعى ساويروس

وبعد برهة من الدهر اجتمع اساقفة تلك الناحية وكهنتها للنظر في امور الدين فاستقدموا الانبا باخوميوس الى كنيسة اسنا وألقوا عليه عدة اسئلة ليتحققوا صحّة ما يُخبر عنهُ من المعجزات كمعرفة اسرار القلوب والانباء بامور مستقبلة الى غير ذلك ممّا كان يتناقلهُ الناس بصددهِ. فاجاب وليّ الله بكل حكمة ورقّة على هذه الاسئلة

فلمّا انتهى من الكلام اذ دخل الكنيسة رجل من الاوباش بهِ مسٌّ وهجم على القديس ليفلق رأسهُ بعصاة ضخمة لكنّ الله نجّاهُ من يدهِ وارفضّت الجماعة فعاد القديس مع رهبانهِ سالمًا الى دير بخنوم في تخوم مدينة لاتوبوليس (١)

فلاتوبوليس المذكورة هو اسم اسنا باليونانيّة دُعيت بذلك اشارةً الى معبودتهم السَّنكة لاتو. اما اسم الدير وهو بَخنوم فمعناهُ بالقبطيّة بيت خنوم وكان خنوم اعظم آلهة مدينة اسنا. والهيكل العظيم الذي يسعى علماء العاديّات المصريّة بنزع الردم عنهُ كان مشيّدًا لذكرهِ. وقد ورد اسمهُ مرارًا في ردهة العواميد التي رُممت مؤخرًا

اما مقام الدير القديم فكنّا نحدس انّ موقعهُ غربيّ المدينة في وسط مزدرعاتها. والحقّ يقال انّ ظنّنا لم يَخب هذه الدفعة فان اعيان المدينة افادونا ان الفلاحين بينما كانوا يحفرون في الرمل غربي البلد بين الجبل المجاور والزروع اذ وقفوا على بقايا كنيسة كبرى مع ابنية شتى لاحقة بها. فوجدوا المذابح في مكانها المعتاد ونقوشًا بيّنة على جدران الكنيسة فاتفقت آراؤهم على انّ هذه الاخربة هي دير القديس باخوميوس. غير انهم اعلمونا بان الريح سجّت هذه الاخربة برمل البرّيّة

فللحال تحفّزتُ لزيارة هذا المكان ورافقني كاهن قبطي ابن راعي الكنيسة الكبرى وهو رجل كثير الآداب لطيف المعاشرة فسرت واياهُ. وكان طريقنا على دير شهير متقن البنيان يُسمّى دير الشهداء وهو الدير الذي يدعوهُ بعض الكتبة بدير اُمونيوس. فبعد زيارتهِ اخذنا معنا حارس هذا الدير كدليل وسرنا في وجهة الشمال نحو نصف الساعة

(١) راجع ترجمة القديس اليونانية (ع٥٢ و ٧٢) والقبطيّة (ص ٧٨) والعربيّة (ص ٥٢٥ و ٦٥٩)

حتى بلغنا طرف المزروعات ثمَّ ملنا الى الغرب ومشينا نحو ٦٠٠ متر على بُعد نحو اربعة او خمسة كيلومترات من المدينة فوجدنا آكاماً مرتفعة فوق الحضيض تعلوهُ بضعة امتار فقال الدليل: هذه الكنيسة المطلوبة. وهنا الابنية المقصودة

والقيت النظر على المكان واذا نحن في سهل عرضهُ نحو ثلاثة كيلومترات. اما التربة فوجدتها خليطاً ممتزجاً من الرمل الخشن والحصى ومن حجارة تساقطت من الجبل وقد نسفت الريح عليها الرمل حتى ساوت ما ارتفع منها وما هبط. وفي هذا السهل مدافن قديمة لا تُحصى وكان لبعضها مداخلُ مفتوحة الا ان الرمل قد تراكم في باطنها فلا يمكن الولوج اليها

فلم نزل نطلب لنا منفذاً حتى وجدنا حفرةً صغرى دخلها الدليل والكاهن بعد الجهد الجهيد فتتبعت آثارهما وانا ازحف على صدري زحفاً. فوجدنا في داخلها حُجرة مكعَّبة الشكل طولها اربعة امتار في مثلها عرضاً وارتفاعاً وهي محفورة في التربة الصلدة وكان سقفها مطليًّا باللاط الابيض وكذلك جدرانها التي كُتبت عليها بالمغراء بعض الكتابات استدللنا منها انَّ هذا المدفن لأسرة نصرانيَّة تدعى فيب. اما القبور فهي محفورة في الارض يدلُّ عليها صليب حسن النقش حُفر فوقها في وسط دائرة يحيط بها اكليل جميل وتزينها كتابة. ومما كُتب هناك بالقبطيَّة ما نصُّهُ: «الابن المسيح»

اما القبر الاوسط فهو كما يظهر لكبير العائلة وعليه تاريخ السنة ٩٩ للشهداء التي توافق سنة ٣٨٣ للميلاد. وفي جهة اخرى رأيتُ حمامتَين تحمل كاتاهما في منقارها اكليلاً في وسطهِ صليب وتحت الاكليل باللغة القبطيَّة ما تعريبهُ: «ايها الاب والابن والروح القدس اذكروني في سلامكم انا فيب الخاطئ الحقير واغفروا لي امين» وعلى رأينا ان هذه الكتابة كانت تعلو قبر شاب في مقتبل العمر ابن العائلة السابق ذكرها

وما يزيد هذه الآثار قدراً انها كُتبت في عهد القديس باخوميوس ولعلَّ هؤلاء الموتى قد اختاروا ان يرقدوا بعد وفاتهم قرب دير القديس ليذكرهم الرهبان في صلواتهم

ونحن نختم هذه المقالة طالبين من الرب ان ينشر في مدينة اسنا روح باخوميوس وايمانهُ القويم لانَّ البدعة اليعقوبيَّة قد مدَّت رواقها واثبتت اطنابها في هذه المدينة حيث لم نجد كاثوليكيًّا واحداً بين الخمسة عشر الفاً من النصارى الذين فيها

* اصلاح * ورد اسم « دشنا » في هذه المقالة بالكاف « دكنا » وهو غلط. والصواب « دشنا »